تطبيقات نظرية النخبة و نظرية الدومينو في بلدان الربيع العربي

د. محمد علي حمود د. سعد السعيدي

المقدمة

لا معنى للأسم اذا لم يكن يحمل معنى معبرا ومفسرا للكيان الذي يحتوي ذالك الاسم لا سيما اذا ما كان المعنى ذو سمه ايجابيه, وعلية فأن الارادة القصدية وراء التسميه اهم من الاسم بشكله المجرد ومن هنا فأننا لانهتم كثيرا بالبحث عن اسم لما حدث ولما يزل يحدث في المنطقة العربية من حراك بقدر ما نهتم بتتبع الاسباب الدافعة والنتائج التي تتمخض عن هذا الحراك والقوى الفاعلة في اطارها والابعاد الوطنية والاقليمية والدولية لهذا الحراك. فاذا كان ذالك الحراك يدعى ربيعا عربيا كما اطلق علية الغرب او ثورات سلميه كما اطلقت علية الجماهير والجهات العربيه الداعمه له او انقلابات وتمرد او ارهاب من قبل الجهات المناوئة لة او التي لم تتوافق معه ,فأن الثابت والاكيد والمهم هو توافر رغبه جمعيه للمجتمع العربي في التغيير السياسي والاجتماعي والاقتصادي يفضي الى الحد المرضي من التنمية البشرية والحريه والعداله والكرامة الانسانية على ان يشمل ذالك التغيير بالضرورة النخبة الحاكمة بغض النضر عن شكلها ونوعها.وقد تركزت رغبة الجماهير والقوى المتحالفه معها او المستفيدة من حراكها حول ضرورة وحتمية التخلص من النخبة الحاكمة التي ارتبطت تاريخيا بالفساد والتخلف والظلم حسب وجهة نظر القوى والجماهير العربية فظلا عن

ضرورة تغيير منظومة القيم التي ارتبطت بها لاسيما منها المتعارضة مع القيم الجديدة المستهدفة .وبما ان النخب الحاكمة في البلدان العربية فظلا عن الظروف الموضوعية المختلفة(السياسية , الاقتصادية , الاجتماعية , الفكرية الخ) التي تكتنف المجتمعات العربية متشابهة الى حد كبيرعلى الرغم من اختلاف مسمياتها (نظام جمهوري نظام ملكي على سبيل المثال) فأن انتقال موجات وعوامل التغيير من دولة عربية الى اخرى اصبح اكثر يسرا في اطار ما يعرف بنظرية الدومينووهذا ماحدث ويحدث اليوم مع الانظمة العربية. ومن هنا نستطيع ان نتعرف بشكل افضل على طبيعه التغيير واهدافة في المنطقة العربية عندما نبحثة في اطار تحليل نظرية الدومينو ونظرية النخبة.

الفصل الاول : نظرية النخبة .

اولا: الاساس الفكري لنظرية النخبة

عكس الحديث حول ظاهرة النخبة جدلا فكريا في المجتمعات الغربية عموما وفي الولايات المتحدة الأمريكية خصوصا ولعل انطلاقة هذا الجدل كانت ترتكز على تساؤل رئيس هو هل ان وجود النخبة بقوة في المجتمع وممارستها للحكم يشير الى حقيقة ان حكم الأغلبية قضيه شكلية او نظرية وان الواقع العملي يشير الى فشل هذه الألية مهما كان تطبيقها ديمقراطيا ، وذهب البعض الى القول ان وجود النخبة وممارستها للسلطة لا يتقاطع مع حكم الأغلبية بل العكس وجود هذه النخبة يرتبط بالجماهير التي تختار اشخاصاً يشكلون في المستقبل نخبة حاكمة وفقا لأرادتهم وبالتالي تشكل النخبة ظاهرة صحية في المجتمعات سواء كانت متقدمة ام نامية . ومع كل ما تقدم لا يمكن نكران الخلاف الذي دارحول تحديد مفهوم النخبة في المجتمعات النامية الذي ذهب الى لصق صفة السلبية

والاستغلالية في النخبه في البلدان الناميه والكفاءة والتمييز والتطورفي البلدان المتقدمه رغم استغلالها في بعض الاحيان لجهود المجتمع والحكومة .

ثانيا: تعريف النخبة

يرى البعض ان الاستخدام الأول لمفردة النخبة Elite كان في القرن السابع عشر لوصف بعض السلع التي تتميز بصفات جيدة عن مثيلاتها ، ووردت المفردة في (قاموس اكسفورد للغة الانكليزية) عام ١٨٢٣ حيث اشارت هذه الكلمة الى فئات اجتماعية معينة, لكن انتشار هذه الكلمة واشتهارها لم يتم الا عام ١٩٣٠ بفضل كتابات فيلفريدو باريتو Velfredo pareto . *

فقدانطلق بارتيو من مقاييس لتمييز النخبة عن باقي افراد المجتمع وركز على عامل الكفاءة والنشاط والقدرة في بلورة النخبة ،[١] ويرفض الديمقراطية التمثيلية القائمة على اساس المساواة في الحقوق بين افراد المجتمع ,لانه يرى ان الأفراد يتمايزون فيما بينهم في المواهب والكفاءة وعليه ينقسم المجتمع إلى قسمين :الأول (اللانخبة) والثاني هو (النخبة) وهي المرتبة العليا اذ تنقسم بدورها الى النخبة الحاكمة وهم مجموعة الأفراد الذين يمارسون دورا في تسيير شؤون الدولة ، والنخبة غير الحاكمة وهم باقي أعضاء النخبة من غير ممارسي السلطة.

ويقول باريتو " ان المفهوم الرئيس لتعبير النخبة هو التفوق وبمعنى اوسع اني اعني بالنخبة في مجتمع ما أناساً لهم درجة متميزة من صفات الذكاء والطبع والبراعة والمقدرة من كل نوع " .[٢]

ووفقا لذلك فان ظاهرة النخبة موجودة في كل المجتمعات والتمايز بين الجماهير و النخب امراً طبيعياً فالتمايز بين الأفراد يرتبط بتوزيع الثروة الذي يسير بشكل

متواز مع توزيع السلطة ، اذ ان الأفراد او الفئة الأكثر أموالا تكون ذات مستوى سياسي واجتماعي اعلى من بقية افراد المجتمع .

ان الانتماء الى النخبة لا يتم بطريقة التوريث فقد لا يكون للأبناء صفات تؤهلهم للدخول الى النخبة وبالتالي فهنالك مميزات مهمة لأفراد من عامة الناس تخولهم للدخول الى النخبة وهنا غالبا ما تشهد المجتمعات بروز نخب جديدة وتتراجع نخب سابقة وتتلاشى ويتم ذلك احيانا عن طريق الحراك الاجتماعي والسياسي للثورات والانقلابات ،[٣] فالثورات مثلا تلعب دورا حاسما في تغيير النخبة والعمل على احلال نخبة محل اخرى .

ان التطور الأهم في تحليل ظاهرة النخبة ليس وجودها في المجتمعات بقدر اهمية تتبعها للسلطة وعملها على توجيه وادارة الدولة. وهنا برزت نخبة السلطة التي ترتكز على قدراتها المادية والاجتماعية ووسائل قوتها بحيث تحولهم الى ممارسة مراكز قيادية . وهنالك من يرى ان قوة ونفوذ النخبة يرجع بالدرجة الأولى الى ضعف الجماهير والذين لا يمتلكون اي قدرة مادية او أليات تاثير مهمة تجعل من الحكومة مستجيبة لرغباتهم وطموحاتهم ، لذلك ذهب المفكرين الاوائل لنظرية النخبة (فلفريدو باريتو و جيتانو موسكا وميلز) الى اعتبار ان النخبة هي جماعة حاكمة و وميزوا بين بين الحكام والمحكومين وبين الاقلية التي تمارس السلطة والاغلبية التي لا تمارس السلطة .[٤]

وبالاضافة الى ما تم ذكره في اعلاه يمكن تقديم تعريفا اجرائيا للنخبة وهو " انها فئة من الافراد يشغلون مناصب او مراكز للنفوذ والسيطرة في مجتمع ما وتتميز بقدراتها المادية والاجتماعية التي تمكنها من ممارسة السلطة و إدارة شؤون الدولة " .

ثالثا: معايير نظرية النخبة

انبثق الجدل الفكري حول النخبة من اسس مهمة اتجه عبرها كل مفكر او باحث الى معيار للتمييز بين النخبة واللانخبة مما جعل منها في حقيقة الامرنقطة خلاف مهمة .وهنالك ثلاث اتجاهات فكرية رئيسة هي كالأتي :

١- معيار السمات السيكولوجية

عمل فلفريدو باريتو على تمييز النخبة عندما اعطى لها تحديدا عاما فقال " لنفترض ان كل فرد في فرع من فروع النشاط الانساني اعطى دليلا يشكل مقياساً لقدرته بطريقة مشابهة لاستعمال الدرجات في المدارس... فيعطى افضل نوع من المحاميين درجة ١٠ بينما يعطي نوع اخر درجة ١ خاصة لذلك الذي لا يحصل على زبون ....، ويعطي الرجل الذي استطاع ان يجمع الملايين درجة ١٠ والذي يجمع الآلاف درجة ٦ وتبقى درجة الصفر للذين ينتهون بلا مأوى ، فلنكون فئة من هؤلاء الذين ينالون اعلى الدرجات في كل مجال ولنطلق عليهم اسم النخبة" .[٥]

يتجه باريتو الى استخدام هذا المفهوم لغاية اساسية هي اثبات عدم التكافؤ في القدرات الفردية في كل مجالات الحياة كما جعل عدم التكافؤ نقطة لتحديد النخبة الحاكمة ويرى انصار هذا المعيار بان تاريخ كل مجتمع يرتبط بالقيم والافكار والصفات التي تتميز بها النخبة هناك وان هذا التاريخ ما هو الا وصف للعلاقة بين النخبة والجماهير .

ووفقا لهذا المعيار فان النخبة نفسها تشهد تمييزا داخليا فهنالك نخبة حاكمة ونخبة غير حاكمة تضم الاولى اولئك الذين يلعبون دورا مهما في صنع السياسات العامة للدولة, اما الفئة الاخرى فهي تتكون من اولئك الذين يتمتعون

بصفات خاصة الا انهم لا يمارسون السلطة ولكنهم مقربين للذي بيده السلطة.

ويرى باريتوايضا ان هنالك عنصرين يؤثران بنظرية النخبة [٦]:

الاول: هو التبرير اذ يتجه اغلب افراد المجتمع الى تبرير سلوكياتهم وان كانت غير مبررة وهذه الفكرة تختلف من مجتمع الى اخر ومن زمن الى اخر .

الثاني : هو الرواسب وهو انعكاس للغرائز والعواطف وينقسم بدوره الى فئتين الاول فئة الغرائز التكاملية مثل التعاون والاشتراك اما الفئة الثانية فهي غريزة المحافظة على المجتمعات وهي نزعة المحافظة والاستقرار ، هذه الفئتين من الرواسب ترتبط بنموذج النخبة بشكل مباشر [٧]

فتحقيق الفئة الاولى (التكاملية) تؤدي الى ان تتميز الفئة الحاكمة بالدهاء والذكاء ويوصفون بانهم(الثعالب)اما الفئة الاخرى فتقود الى ان تصبح هذه الفئة متميزة بالقوة والاستقرار ويوصفون بانهم (اسود) والسياسة هنا تحتاج الى كلا التيارين [٨].

ان التغيير الذي يطرا على الرواسب وبقية صفات النخبة سيؤدي بالمحصلة إلى ما سماه باريتو (دورة النخبة)اذا يرى ان التغيير الذي يطرا على الصفوة هو نتيجة لتغيير طرا على الخصائص السيكولوجية لأعضائها اذ تفقد النخبة الرواسب التي تمكنها من الحصول على القوة مقابل رواسب الفئات الجماهيرية تتنامى باتجاه بلورة قوة تمكنها من استخدام وسائل توصلها الى تغيير النخبة لتحل محلها .[٩]

٢- المعيار التنظيمي

وفقا لهذا المعيار فان النخبة تتميز عن الجماهير ومن ثم تمارس السلطة تبعا لاسباب واعتبارات تنظيمية تتطلبها ادارة المجتمعات الحديثة ولعل ابرز دعاة هذه النظرية هو (روبرتو ميشيلز).*

يرى ميشلز ان سيطرة النخبة يرجع الى مقتضيات التنظيم ويرى ان الحكم الديمقراطي ما هو الا حكم اقلية رغم وجود الاحزاب السياسية وعمليات الاقتراع والانتخاب والمجالس التمثيلية , فهذه الاليات ما هي الا وسائل لايصال النخبة الى الحكم[١٠]

الفكرة المركزية لهذا التيارتتمحورحولالحقيقة التي تقول ان سيطرة النخبة تعتمد على التنظيم رغم ان القدرة على التنظيم لا تتضمن السلطة ولكن بنية اي مجتمع منظم تولد نخبة ، ويرى وفقا لقانونه الشهير (القانون الحديدي للاوليغارشية Iron Law of Oligarchy) ان اي تنظيم ومنه الدولة تصبح فيه النخبة ضرورة لنجاحه واستمراره على البقاء وطبيعة هذا التنظيم هي التي تسمح بإعطاء السلطة والامتيازات للنخبة [١١]

ولخص النظرية بمقولة " ان كل من يجد تنظيماً سوف يعثر على الاولغارشية بالضرورة " .[١٢]

وتبرز اهمية المعيار التنظيمي اذ كلما اتجه البناء الى التعقيد كلما تزايدت الاعتمادية على قادتة وعلى جهازه البيروقراطي الذي يتملك خبرة فنية وادارية مهمة .

وفي بناء الدولة يسيطر اعضاء النخبة على كل وسائل الاتصال وعلى الاموال والميزانية العامة وعلى وسائل الامن والدفاع وغيرها من امكانيات الدولة وهذه تمكنهم من تعزيز نفوذهم وتقوية شوكتهم ومع ذلك فان انصار هذا التيار يهتمون بالعناصر السايكولوجية للنخبة خاصة سمات القيادة العليا في النخبة التي تحاول عكس هذه الصفات على البناء التنظيمي للنخبة وللمجتمع .[١٣]

٣ –المعيار الاقتصادي – الاداري

يؤكد دعاة هذا التيارعلى ان الاساس في تمايز النخبة عن بقية الجماهير هو سيطرتها على وسائل الانتاج اي ان المنطلق في التمايز هو اقتصادي وليس سايكولوجي ولاتنظيمي. ومن ابرز مفكرين هذه النظرية هو جيمس بيرنهام الذي عكس أفكاره في دراستة (الثورة الادارية The managrial Revolution) عام ١٩٤١ اذ اكد ان المجتمع يتسم بالتقسيم الى نخبة وجماهير, هذه النخبة تمتلك القدرة وتتبع هذه القوة من سيطرتها على وسائل الانتاج وترتبط سيطرتها بجانبين اولهما انها تحاول ان تحرم وتمنع الاخرين من الحصول على اي عوائد من وسائل الانتاج, وثانيهما ان النخبة توزع العوائد وفقا لرؤيتها ودائما تستخدمها لتدعيم مكانتها وتعزيز اليات قوتها ويرى بيرنهام ان القوة تراكمية لدى النخبة, فالسيطرة على وسائل الانتاج تؤدي الى قوة سياسية وهذه تؤدي الى تنمية امكانية الدولة ومن ثم تعطي لأعضاء النخبة إمكانية سياسية واقتصادية [١٤] .

ويرى بيرنهام ان العالم الذي نعيش فيه يمر بحالة تحول من (المجتمع الرأسمالي)الذي يمتاز بأن اصحاب المشاريع هم الذين يديرون انشطتهم الى (المجتمع الاداري) الذي يصبح فيه الملاك اشبه بالاعيان ليس لهم معرفة بادارة مشاريعهم ، ولكن يترك الامر لفئة الاداريين ذوي الخبرة والدراية وهؤلاء المدراء انبثقوا من التطورات التي شهدتها المجتمعات الرأسمالية وهم كبار الاداريين والمهندسين الذين استولوا على السلطة الاقتصادية بالفعل والتي كانت سابقا بيد مالكي الشركات وبهذه الامكانيات فانهم يسعون الى السيطرة على السلطة السياسية.[١٥]

والجدير بالذكر ان العالم اليوم ونتيجة للتطورات التي يشهدها على كل الاصعدة وخاصة بروز ظاهرة العولمة نجد ان هناك نخبة عالمية آخذه بالبروز والتبلور وهي ذات جذور وبنية اقتصادية مالية بدات بنشر الياتها ووسائلها لاستكشاف

الفرص الراسمالية ومحاولة ان تاخذ لها مكانه مميزة على الصعيد العالمي ولا تنفك هذه الفئة على بذل الجهد من اجل تعزيز مكانة سلطتها العالمية وخاصة من خلال المؤسسات الاقتصادية والمالية الدولية . [١٦]

رابعا: دورة النخبة (الحراك النخبوي)

يرى االكثيرون ان (التاريخ هو مقبرة الارستقراطيات) بمعنى ان هناك الكثير من الشواهد التاريخية التي توكد حقيقة ولادة وموت النخب ولا يوجد اي مجتمع يمكن ان يخلو من النخبة سواء هذا المجتمع اسلاميا اومسيحيا متدينا او علمانيا ليبراليا رأسماليا او اشتراكيا، ويرى (باريتو) ان هناك دورة للنخبة بمعنيين ،الاول: الطريقة التي يتحرك بها اعضاء النخبة داخل الاطار العام للنخبة ، والثاني: هو تحرك الافراد بين النخبة واللانخبة ولكن المعنى الاخر هو الاكثر اهمية والاكثر دراسة وتحليلا في نظرية النخبة لانه في اطاره سيتم تغير النخبة او انهاء وجودها لتحل مكانها نخبة جديدة وهو ما يعنينا هنا ، هذه التغيرات يطلق عليها الحراك النخبوي او (دورة النخبة) والاصل في الحراك النخبوي هو تحرك الجماهير للوقوف ضد عناصر واليات النخبة وتحاول القضاء عليها او استبدالها او تعديلها من خلال اقصاء بعض الاعضاء واحلال اعضاء جدد من خارج النخبة .ووفقا لهذه التغيرات نستدل على ان الثورة هي الحراك الجماهيري الذي يودي الى احلال افرادا من عموم المجتمع محل اعضاء النخبة الحاكمة ، اما الانقلاب فهو احلال نخبة غير حاكمة بدل اعضاء النخبة الحاكمة [١٧] .

الفصل الثاني :نظرية الدومينو(Domino theory)

ظهرت هذه النظرية وسادت في الخمسينيات من القرن الماضي في الولايات المتحدة ومن ثم ما لبثت ان انتشرت في العالم الغربي بشكل خاص ومفادها بأنه إذا كانت دولة في منطقة معينة تحت نفوذ الشيوعية فإن الدول المحيطة بها

ستخضع لنفس النفوذ عبر تأثير الدومينو وبالعكس فان انهيار نظام شيوعي في منطقة ما تتبع النظام اللشتراكي الشيوعي يؤدي الى انهيار باقي الانظمه تباعا.

و قد طرح الرئيس الأميركي الأسبق دوايت أيزنهاور نظرية الدومينو في خطاب شهير ألقاه في عام ١٩٥٤.

اولا:الاسس الفكرية لنظرية الدومينو Domino Theory

ادت تطورات الحرب العالمية الثانية الى بروز قوتين دوليتين ذات قدرات ايديولوجية ومادية هي الاكبر على الصعيد العالمي وهما الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي وبدء التنافس والصراع والصدام يظهر في اطار تفاعلاتهم على الصعيد الدولي. ومن اهم النظريات التي برزت آنذاك كألية لتحليل التوجه الدولي للاتحاد السوفيتي هي نظرية الدومينو والتي يمكن تحديد اهم معالمها بالاتي:

اولا التطور التاريخي لنظرية الدومينو

كانت البدايات الفكرية الاولى لنظرية الدومينو ترجع لطروحات الرئيس الامريكي الاسبق ايزنهاور (Dwight D. Eisenhower) حيث ارتبطت به الافكار الاساسيه لهذه النظرية عندما اقلقه المد الشيوعي خاصة في شرق اسيا، ففي المؤتمر الصحفي الذي عقده الرئيس ايزنهاور في ٧ ابريل ١٩٥٤ توجه اليه الصحفي روبرت ريتشارد (Q. Robert Richards) عن مؤسسة (Copley Press) بسؤال حول اهمية منطقة الهند الصينية(فيتنام) فاجابة " انت تعرف بالطبع عموميات وخصوصيات الكلام عن مثل هكذا مواضيع، ولكن لهذه المنطقة قيمة

خاصة بسبب انتاجها لمعادن تعد مهمة للعالم الحر كذلك هناك كم هائل من التكتلات البشرية تخضع لانظمة دكتاتورية في هذه المنطقة ،واخيرا هناك اعتبارات مهمة لما يمكن ان ندعوه بمبدء الدومينو الذي يعني ان صفا من احجار الدومينو يمكن ان يسقط بفعل تاثيرات الحجر الاول ..... وهكذا يمكن ان تسقط الدولة بعد الاخرى تحت الشيوعية ....."[١٨].

تنامت نظرية الدومينو خلال سنوات العقد السادس من القرن العشرين خاصة مع تطور السياسة الدولية للاتحاد السوفيتي الذي اتجه الى محاولة كسب اكبر عدد من الدول وضمها الى المعسكر الشيوعي ، وقد تبنى التطور الجديد في هذه النظرية بعض الصقور في الحكومة الآمريكية آنذاك. جوهر هذه النظرية هو" أنه في حال سقوط دولة هامة اقليمياً تحت المد الشيوعي فإن ما حولها من الدول يسقط بالتتابع تحت التأثير الشيوعي بنفس الوسيلة التي تسقط بها أحجار الدومينو المصفوفة"، ولو تتبعنا البلاد التي تحولت الى الايديولوجية الشيوعية لوجدناها روسياومجالها الحيوي الاقليمي ثم تلتها الصين، وهما احجار الدومينو الأول والثاني وعلى أثر ذلك اجتاحت الشيوعية دول كثيرة في اوربا واسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية .

إن نظرية الدومينو تم اختبارها في عدة احداث دولية خاصة بعد تفكك الاتحاد السوفيتي وسقوط العديد من الدول الشيوعية تباعا في العالم على اثر ذلك خاصة في دول اوربا الشرقية وامريكا اللاتينية .[١٩]

ثانيا :تعريف نظرية الدومينو

يمكن تقديم مجموعة من التعريفات المبسطة لنظرية الدومينو فعلى سبيل المثال لا الحصر اذ يرى(US Military Oxford Dictionary of the) ان نظرية الدومينو هي " نظرية جيوسياسية ظهرت في الولايات المتحدة خلال ١٩٥٠s و ١٩٦٠s جوهرها أن فيتنام هي محور جنوب شرق آسيا فاذا سقطت بيد الشيوعيين، فان دول أخرى في جنوب شرق آسيا مثل(لاوس وكمبوديا وتايلاند) وربما وكوريا الجنوبية وتايوان وبورما والهند يمكن ان تندرج أيضا ضمن المعسكر الشيوعي ".

اما (Oxford Dictionary of Geography) فيرى ان نظرية الدومينو هي " نظرية طورت من قبل مجموعة من السياسيين الامريكيين ومفادها أنه إذا اضطرت دول صغيرة الى 'الاستسلام' إلى الشيوعية، فان جيرانها ستتبعها بثبات وبسرعة ".[٢٠]

الفصل الثالث :تحليل مسببات ثورات مايعرف بالربيع العربي (الحراك والتغيير) .

أثارت أحداث ما يعرف بالربيع العربي تساؤلات عدّة حول الأسباب العميقة التي أدّت إلى إنفجار هذه الثورات و بالأخص سرّ سرعة إنتشارها إنطلاقا من تونس إلى باقي الدول العربية. و حاولت العديد من الأوساط الأكاديمية, العربية و غيرها, تدارك الفجوة النظرية التي أفرزتها هذه الأحداث و ذلك بتقديم محاولات نظرية لتفسير هذه الظاهرة و فهم طبيعتها و التنبؤ بتداعياتها المحتملة.

بدات اولى ثورات الربيع العربي من تونس مع الواقعة المشهورة التي حرق فيها محمد بو عزيزي نفسه كردة فعل على مصادرة (عربة بقالته) من قبل قوى الامن ،ومثلت هذه الحادثة شرارة رئيسة

(فجرت مستودعا مملوءا) بالفساد والبطالة والرشوة والفقر والاستبداد والعمالة والدكتاتورية وهلم جرا من بلدان عربية خرجت من استعمار لتدخل الى اضطهاد وتنكيل وتردي بكل مناحي الحياة وخاصة فقدان الحريات وحقوق الانسان وتكبيل الراي وحرية التعبير وامتهان لكرامة المجتمع العربي ومصادرة حقوقه وتعطيل طاقاته ،هذه الحادثة ادت الى انتقال التظاهرات والصدامات من منطقة محمد بو زيدي لتنتقل الى كل انحاء تونس (وهذه نقطة التحول الرئيس) اذ تحولت التظاهرات المعارضة لاجراءات قوى الامن ضد محمد بو عزيزي لتنتقل الى مظاهرات ضد السلطة وخصوصا ضد الرئيس بن علي ، وامتدت الثورة الى كل انحاء تونس ولتنتقل بعدها الى الدول العربية الاخرى وخاصة مصر وليبيا وسوريا واليمن وبدرجه اقل في البحرين والكويت والاردن . هذا الانتقال من منطقة الى اخرى ومن دولة الى اخرى لا بد ان يكون وراءه عوامل ومسببات حقيقية[٢١] ،ويجب ايظا ان يكون لعلم السياسة دور في تحليل هذه الظواهر الثورية لذلك لا بد من وضع اجابات واضحة وتفسيرات دقيقة لاليات ومسببات ثورات الربيع العربي وهذا ما سنحاول الاجابة عليه من خلال استخدام وتطبيق القواعد الفكرية لنظريتي الدومينو و النخبة على التحولاث الثورية في بلدان الربيع العربي

اولا : تفسير نظرية الدومينو لثورات الربيع العربي

كانت هذه النظرية هي السبب الأساسي لوقوف الولايات المتحدة في مواجهة أي تغيير ديمقراطي في دول أميركا اللاتينية التي كانت تعتبرها فناء خلفيا لها، ووقفت بالتالي في مواجهة التحولات الاجتماعية والسياسية في هذه الدول، اذ ساندت انقلابات عسكرية فيها بسبب المخاوف من وصول حركات يسارية وان كانت اليات وصول هذه القوى اليسارية اليات ديمقراطية ,ولعل أشهر هذه الانقلابات كان في غواتيمالا في خمسينات القرن الماضي، ونفس الأمر حدث في جمهورية الدومينيكان ودول أخرى في القرن العشرين، منها بالطبع تشيلي في سبعينات القرن الماضي(١٩٧٣) ، والأرجنتين ونيكاراغوا وغيرها في عقود أخرى (عقد الثمانينيات). وفي السنوات القليلة الماضية اسفرت الاليات الديمقراطية عن تولي حكومات يسارية مقاليد الأمور في أكثر من دولة لاتينية، مثل فنزويلا والبرازيل ونيكاراغوا وبوليفيا، قال البعض إن ذلك حدث انطلاقا من نظرية الدومينو التي عاد الحديث عنها مرة أخرى في العلوم السياسية، بعدما اختفى لعقود طويلة.

وعندما بدأت تظاهرات مصر بعد نجاح ثورة تونس، كتب أكثر من محلل غربي أن المنطقة العربية تعيش تحت تأثير نظرية الدومينو، وهذا ما اثبتته الاحداث لاحقا

بالطبع، عندما برزت هذه النظرية كانت هناك انتقادات حادة توجه لها، خاصة تلك التي رأت أنها تتجاهل اختلاف الطبيعة الاجتماعية لكل دولة، ودرجة التطور الحضاري والاجتماعي والثقافي، وكان ذلك سببا كافيا عند البعض

لدحض النظرية، بل ونفيها من الأساس. ولكن يبدو لنا وللكثير من المتابعين والمهتمين بالشؤون العربية أن هناك قدر كبير من المصداقية والصحة والمنهجية في هذا الطرح جعل المحللين يلجأون لهذه النظرية لتفسير الأحداث العربية الراهنة .خاصة وأنها تقدم تفسيرا منطقيا وسهلا، بصرف النظر عن مدى علميته. [٢٢]

ولعل اهم الملاحظات التي يمكن ان نسوقها من خلال استخدام نظرية الدومينو على تحولات وثورات الربيع العربي هي الاتي :

- ان البلد العربي الاول في مصفوفة الدومينو كانت تونس والجدير بالذكر انها لم تسقط بفعل خارجي او بسبب تاثير عوامل دولية ولكن وبسبب ضعف الجذور السياسية والاجتماعية لنظام زين العابدين بن علي وفقدانه المشروعية والرضا الشعبي عن اداء نظامة السياسي .ادى ذلك بالمحصلة الى عدم استقرار (اولى احجار الدومينو العربية) وبالتالي (سقوطها) .
- ان ثورات الربيع العربي ركّزت أساسا على الجمهوريات العربية ذات الانظمة الرئاسية العسكرية التي تتسم انظمتها السياسية بسمة ما بات يعرف بالامنو قراطية التي تجمع بين الطبقة السياسية والعسكرية البوليسية لأدارة الدولة كتونس و مصر و ليبيا و سوريا و اليمن وهذه البلدان هي احجار الدومينو وهي تتصف بتقارب شكل ومضمون الانظمة السياسية والواقع الاجتماعي[٢٣] ولعل الاستثناء لهذه الانظمة هي الجزائر التي لا تزال تتمتع بواقع سياسي مستقر الى حد ما ، وهنا

التساؤل المهم الذي يطرح نفسه (هل ان تساقط احجار الدومينو يمكن ان يمتد الى انظمة ملكية)؟

- لا تزال الانظمة الملكية والوراثية بأشكالها المختلفة اكثر تماسكا لأسباب داخلية وخارجية عديدة فالمظاهرات في البحرين تم صدها من خلال الدعم السعودي اعتقادا منها ان تخلخل نظام الحكم في البحرين يمكن ان يمتد الى جاراتها الخليجية ونفس الشيء يمكن ان يتكرر في الكويت اذا ما اقتضت الحاجة وهذا (ما لا يمكن ان يقبله امراء الخليج)، اما الاردن فيمكن ان تكون اكثر البلدان العربية الوراثية عرضه لتاثيرات البيئه الاقليمية التغييرية وهذا ما تؤكده المظاهرات التي حملت ولاول مرة شعارات تمس الملك ونظامه السياسي .مع الاخذ بنضر الاعتبار ان نظرية الدومينو ممكن ان تتكرر في البلدان العربية ذات الانظمه الوراثية بطرق تختلف نوعا ما عن الاخرى من حيث الشكل والشعارت المستهدفة علنا لا المضمون [٢٤], فالحراك والقوى التغييرية في هذة الدول لا تطالب بأسقاط النظام السياسي كمطلب اساسي بقدر مطالبها المتصلة بالاصلاح الشامل الذي يمكن ان يفضي الى نفس النتائج التي ابتغتها الثورات العربية التي سبقتها الا انها تتشابة مع الثورات العربية الاخرى في الياتها والقوى المحركة لها التي تتسم غالبيتها بكونها حركات اسلامية .

ثانيا :التحليل النخبوي لثورات الربيع العربي

ان التحليل السابق وفقا لنظرية الدومينو لا يتعارض او يتناقض مع التحليل النخبوي لثورات الربيع العربي بل يتكامل معه ، فنظرية الدومينو تحلل التحولات

الاقليمية وانتقالها من دولة الى اخرى واليات ومسببات هذا الانتقال خارجيا ، وهنا يمكن القول ان الحراك الداخلي يمكن تفسيره وتحليله وفقا لنظرية النخبة لم تكن الغالبية الساحقة من النخب العربية قادرة على توقع الانفجار الشعبي الذي بدأ في تونس وامتد إلى أكثر من قُطْر عربي، فأقصى ما كان يدور حوله حديث هذه النخب في مسألة التغيير السياسي يتمثل في الصراع بين أجنحة الحكم في البلدان العربية واحتمالات التوريث التي كانت تلوح في الأفق في أغلب الجمهوريات، لذلك برز الفعل الاحتجاجي العربي كتعبير عن تطلعات الجماهير المحرومة والمكبوتة بعيداً عن تنظير النخب التي لم تتمكن من فهم حراك الجمهور ولا من مواكبته بالشكل المطلوب [٢٥].

لا تختزل أزمة النخب السياسية العربية في عدم فهمها لحركة الجماهير وفشلها في صنع هذه الحركة وقيادتها فحسب، بل تتجاوز ذلك إلى دخول كثير من النخب في عداءٍ مستحكم مع الحالة الثورية العربية لأسباب ودوافع مختلفة، فقد وضعت اللحظة التاريخية المتمثلة بحركة الجماهير العربية غير المسبوقة منذ عقود كل النخب أمام امتحان عسير لمبادئهم ومنطلقاتهم الفكرية والإنسانية، وسقط كثيرون في هذا الامتحان مع انكشاف تناقضات خطابهم مع مواقفهم، وصار الحديث عن سقوط النخب يتردد كثيراً في هذا الزمن العربي .[٢٦]

أن بلداناً عربية بما فيها تونس ومصر وليبيا وسورية واليمن وغيرها عانت من فساد كبير ادى الى فجوة بين النخبة (بما فيهم النظام) والمواطن العادي، وما يعمق هذه المعاناة هوان إنهيار نظام التعليم والرعاية وقمع الشعب بالقوة وخداعه بالايديولوجية ومصادرة حقوقة والانتقاص من كرامتة الانسانية وتضييع فرص النمو الممكنة والمتاحة تنامى بعد إنتشار الفكر القومي العربي بدايةً من خمسينات القرن الماضي–واللذي كان هدفه إعلاء شأن العرب إلا أنه أدى إلى

إنتشار الإستبداد و جعله النمط التقليدي للحكم– وقد ازدادت وتراكمت معاناة المجتمعات العربية مع السنين اللتي شهدت انتهاك ومصادرة حقوق أغلبية الشعب من قبل النظام والنخب المتحالفة معه . ومن ضمن اسقاطاتت هذه المعاناة لجوء الشعب إلى جهات مختلفة منها تتسم بالسلبية علها تنجيها من اهانتها اليومية أو على الأقل تنسيها عذابها المستمر. تلك الجهات تشمل التوسل إلى العالم الخارجي عن طريق المتاح من تقانة الاتصالات والمواصلات(الأقمار الصناعية والانترنت)، الهروب من السجن العربي عن طريق الهجرة، إنتشار الإسلام المحافظ كبديل سياسي. وعندما أدت هذه المعاناة المتراكمة أخيراً إلى الإنفجار الثوري المتوقع–وإن تأخر كثيراً–لعب كل من عناصر تلك الجهات دورها في دعم ومساندة الثورة. ولذا لا عجب القول حسب رأي البعض أن انهيار النخب العربية الحاكمةمعنويا وافلاسها سياسيا وفكريا سهل على الاعلام(قناة الجزيرة، فيسبوك، تويتر، جوجل، الخ) جاليات العرب بالمهجر، منظمات المجتمع المدني والاحزاب الصغيره ,القوى الاسلامية المنظمة (جماعة الاخوان المسلمين في البلدان العربية مثلا) إسقاط انظمتهم الدكتاتورية وبناء المجتمع من جديد[٢٧].

هكذا فشلت النخب السياسية الحاكمة من السيطرة على بلدانها بعد ان وصلت الاوضاع المتردية الى مستوى متقدم مما دفع الجماهير الى كسر حاجز السكوت وخروج بمظاهرات تطالب باسقاط النظام واستبدالة بنظام جديد تعبيرا عن فساد النخب السياسية وخيانتها لحقوق وتطلعات المجتمعات العربية في مجال حفظ الكرامة الانسانية التي تقوم حدودها الدنيا على حق المواطنه الصحيحة (الحصول على فرص عمل مقنعة

وممارسة حقوقة السياسية طبقا للنظام الديمقراطي واداء شعائره ومعتقداتة الدينية والاطمئنان على مستقبله الخ) ودكتاتوريتها ،ويمكن تقديم بعض الملاحظات التي تقدمها نظرية النخبة لتحليل وتفسير هذه التحولات الجديدة:

- حاولت النخب السياسية الحاكمة خلال السنوات السابقة تعزيز قوتها الامنية والعسكرية ،حتى اصبح مفهوم الامن الوطني يرتبط بامن هذه النخب التي وظفت كل امكانيات الدولة لتعزيز مكانتها.
- فشلت النخب السياسية الحاكمة في ادارة المجتمعات العربية بل ادت سياساتها الى تعميق الفجوه بين الحكام والجماهيرو تزايدت مشكلات المجتمع .
- وبسبب تنامي المشكلات العامة في المجتمعات العربية خاصة البطالة والفساد والفقر فقدت النخبة السياسية الحاكمة مشروعيتها في الحكم لذلك كانت الجماهير العربية تنتظر الفرصة المؤاتية للتعبير عن هذا الرفض[٢٨] وهذا ما حدث في كل تجارب الربيع العربي سواءا في تونس ام مصر ليبيا اليمن سوريا.
- بدء الحراك النخبوي الجديد والذي يقصد به تحرك الجماهير الى ازاحة النخبة الحاكمة واستبدالها بنخبة جديدة من اختيار الجماهير وتعبر عن طموحاتها، وكانت اشكال هذا الحراك قد بدات مع تنامي وانتشار المظاهرات السلمية في كل المحافظات ، ولكن في بعض الحالات تم

استخدام القوة من قبل الجماهير بسبب استخدام هذه النخبة الحاكمة للاجهزة الامنية للحفاظ على مكانتها وهذا ما دفع الجماهير الى استخدام نفس الادوات العنفية للقضاء على النخبة السياسية .

- بسبب السياسات السابقة للنخب الحاكمة في بلدان الربيع العربي والتي جعلت من الحركات الاسلامية عدوا لها وحاولت اقصائها وابعادها عن كل اشكال المشاركة السياسية لاسباب من اهمها ارضاء وتطمين الغرب والبرهنه له على مدنيه وعلمانية الدولة من جهة واستبعاد قوى سياسية تمتاز بقوة التنظيم والجذب الجماهيري والمنافسة للنخبة الحاكمة تحت ذريعة معاداة الحركة الاسلامية للحركة القومية العربية التي لم يكن لأحد في تلك الفترة ان يتجرأ عليها مما ادى الى تبقى هذه الحركات بعيدة عن السلطة وقريبة من الجماهير فقد بقت هذه الحركات ولعقود طويلة تعبىء الراي العام لصالحها وضد السلطة والنخبة الحاكمة وهذا ما حدث بالنسبة لحركة النهضة في تونس وللاخوان المسلمون في مصر على سبيل المثال بشكل زاد من فرص القوى الداعمة للتغيير للبروز كنخب جديدة وحد من فرص النخب القديمه في الصمود والاستمرار. ولعل قوة التيار التغييري العربي الجديد في الفترة الراهنة على الاقل ربما تدفع الكثير من النخب العربية الاخرى اللا تغيير طبيعة تحالفاتها او تدفع الانظمة العربية الاخرى اللا فك تحالفاتها السابقة والبدء بأجراءات اصلاحية مفنعة لأستيعاب الطلبات المشروعة للشعوب العربية . الا ان

المهم في تحليل الثورات العربية هو مدى التزام وقدرة القوى القائمة عليها على تلبية مطالب المجتمعات العربية التي صنعتها او دعمتها على اقل تقدير والتي كانت قد قطعتها والزمت نفسها بها امام الجماهير كالتطبيق الحقيقي والشفاف للديمقراطية وتحقيق حد مقبول من العدالة الاجتماعية والتوزيع العادل للفرص والثروة وحفظ كرامة المجتمع وتحقيق شروط التنمية البشرية او على الاقل انجاز مستوى حياة عامة افظل بقليل من تلك التي كان يعيشها المجتمع العربي في عهد الانظمة الدكتاتوريه السابقة

- **الهوامش**

---

* فلفريدو باريتو (١٨٤٨-١٩٢٣) عالم اجتماع واقتصاد وعضو مجلس الشيوخ الايطالي ،له اسهامات مهمة عززت مكانة نظرية النخبة

[١] ت بوتومور : النخبة والمجتمع ترجمة جورج مقدسي ،المؤسسة العربية للدراسات ، بيروت ،١٩٧٢ ، ص ٥-٢

[٢] اورد التعليق د.صادق الاسود علم الاجتماع السياسي اسسه وابعاده ،جامعة بغداد ،كلية العلوم السياسية ، بغداد ،١٩٩٠ ، ص ٤٣٨ للمزيد في هذا الموضوع يمكن الرجوع مثلاالى احسان محمد الحسن . علم الاجتماع االاقتصادي . مطبعة دار الحكمة . الموصل ١٩٩٠

[٣] للمزيد في مجال الثورات والانقلابات يمن الى جملة مصادر اساسية من بينها كاظم هاشم نعمة . الوجيز في العلاقات الدولية .دار الحكمة . بغداد ١٩٩٢ وكذلك معجم علم السياسة والمؤسسات السياسية . ترجمة هيثم اللمع.المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ط١ بيروت. ٢٠٠٥

[٤] انظر محمد علي محمد : أصول الاجتماع السياسي والمجتمع في العالم الثالث ،الجزء الثاني القوة والدولة ، دار المعرفة الاجتماعية ،ألأسكندرية ، ١٩٨٩،ص ٦٤

[٥] نقلا عن بوتومور : النخبة والمجتمع ،مصدر سبق ذكره، ص٦

[٦] انظر في هذا المجال امجد الهويدي . النخبة العربية الحاكمة بين مطرقة التغريب وسندان القومية . دار المفتي للطباعة والنشر . الرباط. ٢٠٠٩

[٧] احسان محمد الحسن . مصدر سبق ذكرة ص٥٥

[٨] محمد علي محمد : اصول الاجتماع السياسي ،السياسة والمجتمع في العالم الثالث ، الجزء الاول ،الاسس النظرية والمنهجية ، الدار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٨٩ ،ص ٢٤٦

[٩] انظر بوتومور : النخبة والمجتمع ،مصدر سبق ذكره، ص ٤٧-٤٩

* روبرتو ميشيلز (١٨٧٦-١٩٣٦) من علماء الاجتماع السياسي درس في باريس وميونخ وعمل محاضرا في جامعة شيكاغو في الولايات المتحدة اشهر كتبه (الاحزاب السياسية الصادرة عام ١٩١١)

[١٠] اسماعيل علي سعد . نظرية القوة بحث في علم الاجتماع السياسي . دار المعرفة الجامعية . القاهرة . ١٩٨٩ ص٦١

[١١] صادق الاسود :علم الاجتماع السياسي ،مصدر سبق ذكره، ص ٤٤٢-٤٤٣

[١٢] محمد علي محمد : اصول الاجتماع السياسي ، الجزء الثاني ،مصدر سبق ذكره، ص٧٤

[١٣] المصدر نفسه، ص ٧٥

[١٤] للمزيد انظر تقرير التنمية الانسانية العربية لسنة ٢٠٠٦ و صادق الاسود :علم الاجتماع السياسي ،مصدر سبق ذكره، ص ٤٤٤-٤٤٥

[١٥] انظر حول هذه النظرية بوتومور : النخبة والمجتمع ، مصدر سبق ذكره ،ص ٨١-٨٤

[١٦] تفصيلات اكثر انظر جان زيغلر : سادة العالم الجدد العولمة-النهابون-المرتزقة-الغجر ،مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ،٢٠٠٣

[١٧] معجم علم السياسة والمؤسسات السياسية . مصدر سبق ذكره

[١٨] يمكن الرجوع الى وقائع الموتمر الصحفي للرئيس داويت ايزنهاور على الموقع الاتي http://coursesa.matrix.msu.edu/~hst٣٠٦/documents/domino.html وكذلك اسماعيل صبري مقلد العلاقات السياسية الدولية دراسة في الاصول والنظريات . جامعة الكويت . ١٩٧١

[١٩] احمد عدلي "عودة نظرية الدومينو" ،الانترنت http://ahmedadly.com/٢٠١١/٠٥/١٩/٤٤٢

[٢٠] ارجع الى اصل التعريفات على الموقع http://www.answers.com/topic/domino-theory

[٢١] عدنان السيد حسين .الحراك العربي والوحدة الوطنية . المجلة العربية للعلوم السياسية .العدد ٣٤ . الجمعية العربية للعلوم السياسية ومركز دراسات الوحدة العربية . بيروت . ٢٠١٢

[٢٢] خالد السرجاني "هل هي نظرية الدومينو"الانترنت http://www.albayan.ae/opinions/articles/٢٠١١-٠٣-٠١-١,١٣٩٣٩٥٧

[٢٣] سمير نعيم .ثورة ٢٥ يناير وثقافة الاستهانة . دار انسانيات للنشر والتوزيع . القاهرة .٢٠١١ ص٢٩

٢٤ ردود الفعل الامريكية والاوربية ازاء الثورة العربية ما الفكرة الكبرى . يوري دادوش وميشيل ديون . ترجمة سميرة ابراهيم عبد الرحمن. مجلة دراسات دولية . العدد ٥٠ . مركز الدراسات الدولية . جامعة بغداد ٢٠١١ ص٥٨

٢٥المنصف وناس. عناصر اولية للمقارنة بين الثورتين في مصر وتونس . المجلة العربية للعلوم السياسية . العدد٣٤ .الجمعية العربية للعلوم السياسية مركز الوحدة العربية .بيروت.٢٠١١ص١٤١

.

[٢٦] بدر الابراهيم " خريف النخب في الربيع العربي "،شبكة الجزيرة الاخبارية ، الانترنت، www.aljazeera.net

[٢٧] عمران البدوي" تحليل أولي في الربيع العربي: بين النخبة والمؤامرة والتاريخ " الانترنت ، www.albadawiblogg.com

[٢٨] محمد النجدي . حرب النخب حرب فاسدة. الطبعة الاولى .دار التوافق للنشر والتوزيع . الرياض ٢٠١٢ ص٢٦